الفصل الخامس

أهل الذمة في ظل التسامح الإسلامي

التسامح في الإسلام :

نعني بالتسامح الديني أن يكون لكل فرد في الأمة حق في أن يعتقد ما يراه حقا، وأن تكون له الحرية في تأدية شعائر دينه كما يشاء، وأن يكون أهل الأديان المختلفة أمام قوانين الدولة سواء.

وينظر الإسلام إلى الأديان الأخرى نظرة تسامح، فقد سمى اليهود والنصارى أهل كتاب، وسماهم أهل ذمة، وهما تسميتان رقيقتان. والإسلام يعترف بنبوة الأنبياء السابقين، ونصح الإسلام المسلمين إذا دخلوا في جدال مع اليهود والنصارى بشأن الدين أن يجادلوهم بالحسنى، فقال الله عز وجل:(وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾). كما قال المولى سبحانه وتعالى أيضا: (قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴿٦٤﴾).

دعا الإسلام إلى التسامح غير الذليل، فهو يبني العلاقات الإنسانية سواء أكانت بين الأفراد وبين الجماعات على التسامح. وقد ذكر الله –

سبحانه وتعالى- ضرورة دفع العداوة بالتي هي أحسن، وأن هذا الدفع الكريم هو الذي يجلب المحبة. وأمر الرسول ﷺ، أن يصفح المسلم الصفح الجميل عمن يعاديه، وقد طبق الرسول مبدأ التسامح في علاقاته بالمشركين وغيرهم في معاهداته وفي حروبه.

والصفح الجميل أبرز ما يكون ظهوره عند الانتصار، فما كانت الحروب للثأر و الانتقام، بل لإعلاء الحق ودفع عدوان الباطل.

وبذلك يتبين أن التسامح والصفح الجميل هو السياسة الإسلامية التي رسمتها النبوة في العلاقة بين الناس بعضهم مع البعض، وخصوصًا بين المسلمين وغيرهم. وهى السياسة المطلقة في حال السلم، والسياسة الشافية للقلوب المجروحة في أعقاب الحرب.

ويدعوا الإسلام إلى أنه لا إكراه في الدين، ويعترف الإسلام بما قبله من كتب سماوية صحيحة وينصح الناس بالتعايش الاجتماعي السلمي، ولا ينال الإسلام من عقيدة الآخرين، بل ينظر دائمًا إلى أهل الذمة بعين الرعاية والتسامح. والإسلام هو آخر أدوار التطور الديني للتسامي والتكامل بالتطور الديني، وهو دين يتجاوب مع أرفع النظم وأسمى التقاليد، ويدعوا إلى الإنسانية. وهو حضارة عامة شاملة تنتظم كل من يعيش تحت سمائها من أجناس مختلفة ومن أهل ذمة في حرية وصفاء.

والإسلام يدعوا أيضًا إلى تعاون أبناء المجتمع البشرى جميعًا دون تفرقة عنصرية أو عصبية دينية، ولا تفضيل أمة على أخرى، إلا بالتقوى، وما تحقق من منافع للبشرية، ويدعوا الإسلام إلى الإنسانية والتعاون العالمي. وحارب الإسلام كل لون من ألوان العصبية، فالعصبية تدعوا إلى

الصراع الاجتماعي، وتفرق بين الناس، ويدعوا الإسلام إلى أن يعيش العالم كله بشعوبه وعناصره في مجتمع واحد، ويكفل الإسلام الأمـــن والـــسلام، والحرية .

ودعا الإسلام إلى السلم في كافة أحواله، واعتبر الحرب من إغراء الشيطان، ومن يسير فيها إنما يسير في خطوات الشيطان، وصرح بأن مـــن يلقي السلام لابد من الامتناع عن قتاله، ولقد صرح فوق ذلك بأن من يلقـــي السلام لا يصح أن يقاتل بدعوى أنه غير مؤمن .

أن الهدف الأسمى للإسلام هو خلق مجتمع بشرى صالح يعيش في أمن وسلام. وهذا الهدف ليس نظرية خيالية، ولكنه حقيقة عمليـــة، يعمـــل الإسلام على تحقيقه ويسوس الناس لإيجاده، والعنصر الهام لضمان صلاح المجتمع وتقدم الإنسانية هو طمأنينة الناس في معاشهم وحياتهم حتى يتفرغوا لعمران الإنسانية وتمدن العالم .

والإسلام دين يؤمن بالإنسانية العامة الشاملة. ولا يميل إلى استخدام القوة والعنف، وإنما يدعوا إلى سبيل ربه بالموعظة والحكمة ويجادل الناس بالتي هي أحسن. ولجأت الدولة الإسلامية في معظم فترات تاريخها إلى نشر المحبة والإخاء والتعاون والسلام، مما يؤدى إلى الإنسانية أن تكـــون فـــي أسمى صورها ومعانيها.

حقوق الإنسان في الإسلام:

فتح الإسلام صفحة جديدة في تاريخ البشرية، وكتب ســـفرًا خالـــدًا حافلا، بأروع جهاد عرفته الإنسانية، وبأعظم دعوة وصلت إلى الأرض من

السماء، وأكبر ثروة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً. ثورة على الجمود البشرى واضطهاد الإنسان لأخيه الإنسان، مما اعترف به المفكـــرون والمؤرخـــون ودعاة الإصلاح.

لقد كانت رسالة محمد ﷺ، أول إعلان عالمي لحقوق الإنسان، واكبر حركة لتأييد كرامته وشخصيته في الحياة، وإصلاحا عاما شمل جميع ميادين الإصلاح . [١٥٢]

كانت حياة محمد مرحلة لها أثرها العميق في تاريخ البشرية جمعاء، فقد تكشفت عن دين رشيد، وشريعة غراء، وأمة مـــستعدة لحمـــل مـــشعل الحضارة، وفلسفة في الحياة تتميز بالنقاء والـــصفاء. واعتـــرف الإســـلام للإنسان بحريته واستقلاله الفكري والاجتماعي والمالي، ورفع من كرامـــة الإنسان ومعنويته، وجعله خليفة له في الأرض يعمرها، ويمحو منها الظلام والفوضى والجهل والجمود ، بما وهبه الله من عقل، وما حث عليه من العلم والعمران والإخاء، التي هي دعائم كل حضارة ومدنية .

والإسلام يصون حقوق الإنسان تماما، فهو يؤكـــد حريـــة الـــرأي، وحرية العقيدة، وحرية الفكر، ويحرر الإنسان من الخـــوف ومـــن العـــوز، ويضع شرائع تبطل الفروق بين الناس وتلغى الامتيازات الطبقية، وتنـــشر الإخاء والمساواة والمحبة بين الناس . ويصف الرسول عليه الصلاة والسلام الجماعة البشرية في حديث شريف، فيقول: (الخلق كلهم عيال الله، فـــأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله) ثم وصى الرسول الكريم البشر بالأخوة فيقول: (كونوا – عباد الله – إخوانا).

---

[١٥٢] خفاجى : الإسلام وحقوق الإنسان .

ضمن الإسلام حرية الإقامة لمن يستظلون برايته، وصـــمن حريـــة تقرير المصير لمن يخالفونه، فقرر أنه لا يجوز للمسلمين أن يعتدوا علـــى أحد، فالإسلام يدعوا إلى الحق والخير والعدل والمساواة والحريـــة، وإلـــى التعاون والاتحاد والشورى، وإلى الأخوة العامة، والزمالة البـــشرية، وإلـــى المدنية والحضارة والرقي والثقافة، وإلى روح الإنسانية في الفرد والجماعة والأمة، وإلى تطبيق المثل العليا التي دعا الإسلام إليها.

ويعتبر الإسلام الناس جميعًا أمة واحـــدة لا تفرقهـــا الألـــوان، ولا الأقاليم، ولا الجنسية، وإذا اختلفت الأديان فإن أهل كل دين لهم أن يـــدعوا إلى دينهم بالحكمة والموعظة، من غير تعصب أو إكراه. وإذا كان النـــاس أمة واحدة فإن أخوة الإنسانية ثابتة يجب وصلها، ولا يصح قطعها، وقد أمر الله تعالى بأن توصل القلوب والمودة، فالبر ثابت للمسلم وغير المسلم.

والإسلام دين يتجه إلى العقل، ويوافق الميول الطبيعية في الإنسان، وهو أول دعوة عالمية توفر المقومات لتعاون إنـــساني عـــالمي، وتحقيـــق الانسجام البشرى، والإسلام هو حمام الأمن والسلام لحياة الإنسان الروحية والمادية، ويجد الإنسان في الإسلام من المرونة ومجابهة الواقع، ومن الوعي الحقيقي الكامل للطباع البشرية ومطالب الحياة، مما لا يجده في غيره مـــن الأديان أو النظم الوضعية.

وأثبت النظام الإسلامي الاجتماعي أنه النظام العالمي الوحيد الثابت. وفي التعاليم الإسلامية نجد أسس علاج المشاكل الاجتماعيـــة والاقتـــصادية والسياسية التي تعانى البشرية منها في كل زمان ومكان. فالإسلام مؤســـس على قواعد عمرانية واجتماعية لا نظير لها في أي مـــذهب دنيـــوي مـــن المذاهب الحديثة. ومن مميزات الشريعة الإسلامية أن تعاليمها ونـــصوصها

تجمع بين البساطة والتعمق، يفهمها العامة والخاصة. وهذه الشريعة الغـراء تتمشى مع تطور الحياة الاجتماعية .

والتعاليم الإسلامية، وحضارتها ونظمها، تقوم على أساسين رئيسين، أساس روحي أو عاطفي، وأساس عقلي أو منطقي. وقد جعل الإسلام العقل حكمًا في كل شيء، والنظم الإسلامية تستند إلى العقـل. ويكفـل الإسـلام للمسلمين وغير المسلمين السعادة فـي حيـاتهم، ويـضمن لهـم التكـافؤ الاجتماعي، والعدالة الاجتماعية.

تحدث (ماسينون) عن مبادئ المساواة في الإسـلام فقـال: يمتـاز الإسلام بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة بمساهمة كل فرد من أفراد الـشعب بالعشر في موارد الجماعة. وللإسلام ماض بـديع مـن تعـاون الـشعوب وتفاهمها، وليس من مجتمع آخر له مثل ما للإسلام، ماض كله التوفيق فـي جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة في الحقوق والواجبات. ولقد برهنت الطوائف الإسلامية الكبرى في افريقية والهند والهند الشرقية، والجماعات الإسلامية في الصين واليابان، على أن الإسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التي لا سبيل إلى التوفيق بينها.

موقف أهل الذمة من الفتوحات الإسلامية

اختلف المستشرقون في العوامل التي أدت إلى سياسة الفـتح التـي اتبعها الخليفتان الأولان أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، فبعضهم يرى أن الرسول كان يسعى إلى إنشاء إمبراطورية إسلامية عالمية، وكانت حملة أسامة بن زيد التي أعدها قبل وفاته بقليل أول خطوة لتنفيذ هذه السياسة التي

أتمها أبو بكر وعمر.فيرى (دى غوية) أن هناك ثلاثة أسباب دفعت أبا بكر إلى الفتح، أولها رغبة محمد في نشر الإسلام بين كل العرب، داخل الجزيرة العربية وخارجها. **وثانيهما** رغبـــة محمـــد ﷺ فـــي أن يـــسود الإســـلام العالم.**وثالثهما** رفض كسرى الفرس وقيصر الروم قبول الإسلام لما دعاهما الرسول ﷺ إلى ذلك في كتبه التي بعثها إليهما. ويردد بعض المستشرقين أن العوامل الاقتصادية هي الأسباب المباشرة للفتوحات العربية الإسلامية .

من اليسير الرد على آراء هؤلاء المؤرخين المستـــشرقين، فهنـــاك نصوص صريحة في القرآن الكريم تدل على أن الله بعث رســـوله ﷺ إلـــى الناس كافة بشيرًا ونذيرًا، وفي الحديث ما يدل على ذلك أيضًا، ولو مـــد الله في عمر رسوله لكان الرسول أول من جهز الجيوش لفتح الأمـــصار التـــي حوله.ويؤيد (أرنولد) [١٥٣] حقيقة عالمية الدين الإسلامي، فيقول : لم تكـــن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب، بل أن للعالم أجمع نـــصيبًا فيـــه، ولما لم يكن هناك غير إله واحد ، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى إليه الناس كافة .

قال الله تعالى : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾ [١٥٤] **كما قال عز وجل:** ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [١٥٥] **وقال سبحانه وتعالى أيضًا:**

---

[١٥٣] الدعوة إلى الإسلام ص ٤٨- ٥٠.

[١٥٤] سورة ص آية ٨٧-٨٨

[١٥٥] سورة يس آية ٦٩-٧٠

(وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٨﴾) [١٥٦].

من مميزات الإسلام ملاءمته لجميع الأجناس البشرية، فلـم يكـن العرب هم الذين اتبعوا الإسلام، فقد أكد الإسلام منذ الساعة الأولى لظهوره أنه دين عام صالح لكل زمان ومكان، وإذا كان صالحًا بالضرورة لكل جنس كان صالحًا بالضرورة لكل عقل، إذ هو دين الفطرة والفطرة لا تختلف فـي إنسان عن آخر وهو لكل ذلك صالح لكل درجة من درجات الحضارة [١٥٧].

يزعم المستشرق المتعصب (وليم ميور) أن الدين الإسلامي لم يهبأ إلا لبلاد العرب، ولكن هذا يتنافي مع ما نعلمه من أن الرسول كان يهدف إلى نشر الإسلام بين جميع الناس على اختلاف أجناسهم، فهو مؤمن تماما أن الإسلام يصلح لجميع البشر، فقد تكفل القرآن الكريم بتبيان كل شيء، فقد قال الله عز وجل لرسوله: (وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٨٩﴾) [١٥٨] .كما قال سبحانه وتعالى (مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ) [١٥٩].

لم تكن العوامل الاقتصادية، كما يزعم بعض المستشرقين، إذا هـي دوافع الفتوحات الإسلامية، فلا شك أن الدافع الأول للفتح هو نشر الإسلام. كما كان غرضها دفاعيًا أو لصد هجوم متوقع، لينفسح الطريق أمام الدعوة.

---

[١٥٦] سورة سبأ آية ٢٨.

[١٥٧] ابتين دينية : محمد رسول الله ص ٣٤٥.

[١٥٨] سورة النحل اية ٨٩ .

[١٥٩] سورة الأنعام اية ٣٨ .

دخل الفاتحون العرب إلى بلاد الشام فوجدوا قوميات مختلفة، فقد تعاقبت على هذه البلاد مدنيات مختلفة فأورثتها علمها وحضارتها وقوميتها، وأمن العرب الفاتحون أهالي الشام، على اختلاف قومياتهم، على أنفسهم وأموالهم، وكانت كتب الصلح العديدة توضح تمامًا هذه السياسة. بل أن العرب المسلمين لم يكونوا قساة مع الروم، وهم الذين جابهوهم بالحرب. وقابلوهم بالقوة، فإنهم لا يريدون عداوتهم ما دام غرضهم البعيد أن يتألفهم في دعوتهم ، وأن يضموهم إلى قوميتهم، وأن يطووهم في دينهم بقدر الإمكان، فلذا فهم لم يخرجوا من الشام أسرى مقيدين [١٦٠] . ولا شك أن هذا اليسر والتسامح قام بدور كبير في التقريب بين الفاتحين والأهالي، فلم يشعر السكان أن هناك طبقة من فوقهم، مما أدى إلى اقتراب القوميات ثم امتزاجها، كما مهد الطريق أمام انتشار الإسلام، والتقريب الجنسي واللغوي.

وكان للفتح الإسلامي لبلاد العراق أثر كبير في أهالي هذه البلاد، فقد رحبوا بالعرب المسلمين كل الترحيب، ووجدوا فيهم المنقذ المنشود الذي يخلصهم من ظلم الأكاسرة الساسانين [١٦١] . وأن كان بعض الفرس قد وقفوا إلى جانب كسرى في قتاله للعرب، إلا أن غالبية الفرس كانوا زاهدين في المظاهر القومية، إذ قد ضعفت معاني الاستقلال في نفوسهم، وهم بما صاروا إليه من سوء الحال يحاولون أن يضعوا أيديهم في يد كل من يعمل على تيسير سبل المعيشة لهم [١٦٢] .كما وجدوا في الفتح العربي خلاصًا من الخدمة العسكرية، وأملا في تمتعهم بالحرية الدينية، هذا بجانب المميزات الأخلاقية التي تمتع بها العرب الفاتحون.

---

[١٦٠] انظر عهد عمر لأهل بيت المقدس في تاريخ الطبرى حـ ٣ ص ١٠٥ .

[١٦١] جوستاف لوبون : حضارة العرب ص ١٦٩ .

[١٦٢] كرد على : الإسلام والحضارة العربية حـ ١ ص ٢٠٢ .

رحب أهالي مصر بالفتح الإسلامي، واتبع الفاتحون العرب سياســة التسامح حتى يحببوا سكان مصر في الحكم العربي الإسلامي الجديد، وكان هؤلاء السكان طبقتين: الأقباط والروم. أما الأقباط فقد أتــاح لهــم العــرب المسلمون الحرية والأمان، بل إن الإسكندرية رغم أنها نقضت الصلح مــع المسلمين، ورغب الجند العرب في جعلها فيئًا للمسلمين لأنهم فتحوها عنوة، لكن عمر بن الخطاب أبى ذلك وأمر عمرو بن العاص ألا يجعل فيئًــا ولا عبيدًا [١٦٣] أما الروم الذين قاتلوا المسلمين فقد خيرهم المســلمون بــين أن يدخلوا في ذمتهم وبين أن يؤمنوهم حتى ينصرفوا عن أرض مــصر فــلا يعودوا إليها[١٦٤] . أما طبقة الروم المسالمة، فقد عوملوا معاملــة الأقبــاط. وهناك طبقة ثالثة من الروم كان لها النفوذ قبل الفتح، وعلى رأسهم المقوقس الذي كان يطمع في حكم مصر باسم المسلمين كما حكمها من قبــل باســم القسطنطينية، ومنهم القائد كلاجى والقائد ســبنديس اللــذان انــضما إلــى المسلمين، وقد استعان العرب بهذه الطبقة في الحكم والإدارة [١٦٥] .

لما بلغ الجيش الإسلامي وادي الأردن، كتب الأهالي المسيحيون إلى المسلمون يقولون:" يا معشر المسلمين، أنتم أحب إلينا من الروم، وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا، وأكف عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا" . وأغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين أن ولايتهم وعداهم أحب إليهم من ظلــم الروم وتعسفهم .

---

[١٦٣] ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٧٥ .

[١٦٤] الطبرى حـ ٣ ص ٩ .

[١٦٥] بتلر: فتح العرب لمصر ص ٢٣٥ و ٣١٤ .

ولما عقدت دمشق الصلح مع العرب المسلمين، ولمست سائر مـــدن الشام تسامحهم وعدلهم، أسرع أهالي هذه المدن إلى طلب الصلح مع العرب، وكان خوف هؤلاء الأهالي من أن يكرههم الإمبراطور الروماني على إتباع مذهبه، ووعد المسلمين لهم بمنحهم الحرية الدينية من عوامل ترحيبهم بالفتح الإسلامي وعدم الارتباط بالدولة الرومانية وبأية حكومة مسيحية [١٦٦] .

تحدث المستشرق (كايتاني) عن موقـــف المـــسيحيين مـــن الفـــتح الإسلامي، فقال : قبل السكان غن ارتياح واضح بتغير الحكومـــة، وذلـــك بمجرد أن علموا أن العرب و المسلمين سيحترمون حقـــوقهم الشخـــصية وسيتركون لهم الحرية العامة في إقامة شعائرهم الدينية . وفي الشام أسرعت مدن ومقاطعات بأكملها إلى التفاهم مع العرب حتى قبل أن تقـــع هزيمـــة الروم النهائية . وفي العراق قبل أهلها الحكم الإسلامي دون قيد أو شرط.

مظاهر التسامح الإسلامي مع أهل الذمة

تمتع أهل الذمة بالحرية و التسامح و العدل، مقابل أداء جزية عادلة معقولة، و ارتبطت بالفعل قضاياهم في الأمور المدنية و الجنائية برؤسائهم الروحيين مادامت القضية لا تمس المسلمين، أما الشريعة الإســـلامية فلـــم تطبق عليهم لأنها لم توضع لهم .وتعهد المسلمون لأهل الذمـــة بحمـــايتهم وتوفير العدل والسلام لهم، وأمنهم على أنفسهم

وأموالهم، فكانوا لا يدفعون سوى عشر التجارة والجزية، بينما هـــم معفون من الذكاة والصدقات . وكانت الجزية تساوى ما يدفعه المسلم مـــن

---

[١٦٦] المصدر السابق ص ٧٧ .

صدقة، وأعفي من الجزية الصبيان والنـساء والمـساكين وذوي العاهـات والرهبان.

كتب ميخائيل الأكبر بطريق بطريقية أنطاكيـة اليعقـوبي فـي النصف الثاني من القرن الثاني عشر يشيد بمعاملة المـسلمين للمـسيحيين وقت الفتوحات الإسلامية، فتحدث عن اضطهاد هرقل لأهالي الشام ثم قال:

".. وهذا هو السبب في أن آلة الانتقام الذي تفرد بالقوة وبالجبروت والذي يدير دولة الشر كما يشاء، فيؤتيها من يشاء لما رأى شـرور الـروم الذين لجأوا إلى القوة فنهبوا كنائسنا وسلبوا ديارنا فـي كافـة ممتلكـاتهم، وأنزلوا بنا العقاب في غير رحمة ولا شفقة، أرسل أبناء إسماعيل من بـلاد الجنوب ليخلصنا من قبضة الروم وآذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضـدنا، وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام".

وقد حوى تاريخ الخلفاء الراشدين أمثلة كثيرة للتسامح الديني نحـو أهل الذمة، وكثيرا ما كان هؤلاء الخلفاء يوصون الجند الفـاتحين بالتعـاليم الحكيمة. وهم في ذلك يحتذون حذو الرسول الكريم ﷺ، فقد مـنح الرسـول أهالي نجران من النصارى عهدًا حوى احترام منشآت النصارى، ثـم قـال لمعاذ بن جبل عند توجهه إلى بلاد اليمن : "لا يزعج يهودي في يهوديته " .

ويدخل في نطاق التسامح، عهود الصلح التي أعطيـت للنـصارى الخاضعين للدولة البيزنطية التي اندمجت في الإسلام، وبموجبها كانوا- في مقابل دفع الجزية- يستطيعون مباشرة شئونهم الدينية في حرية تامة وتسامح كبير. كما أبدى المسلمون تساهلاً كبيرًا في المعاملات المدنية والاقتـصادية بالنسبة لأهل الذمة.

وضرب المؤرخ (أرنولد) كثيرًا من الأمثلة التي تثبت تسامح المسلمين، ثم قال: ومن هذه الأمثلة التي قدمناها آنفًا عن ذلك التسامح الذي بسطه المسلمون الظافرون إلى العرب المسيحيين في القرن الأول من الهجرة، واستمر في الأجيال المتعاقبة، نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح.

ويصف (أرنولد) موقف المجتمع الإسلامي من المسيحيين فيقول: ولما كان المسيحيون يعيشون في مجتمعهم آمنين على حياتهم وممتلكاتهم ناعمين بمثل هذا التسامح الذي منحهم حرية التفكير الديني، تمتعوا بحالة من الرفاهية والرخاء.

كانت أهداف الدولة الإسلامية تخالف أهداف غيرها من الدول، فالدول كانت ولا تزال تهدف إلى سيادة شعبها على غيره من الشعوب، مما يؤدى إلى الحروب والصراع. أما الدولة الإسلامية فكانت لا ترمي في أهدافها إلا إلى تبليغ الدعوة الإسلامية، ولم يكن يقصد من هذه الدعوة سيادة شعب على شعب، ولا طمع في ملك أو إمارة، وإنما كان يقصد منها الدعوة إلى توحيد الله، وإلى الحكم بالعدل بين الناس، وهما غايتان من أشرف الغايات.

ونصح الإسلام المسلمين بأنهم إذا دخلوا في جدال مع اليهود والنصارى بشأن الدين بأن يجادلوهم بالحسنى فقال الله عز وجل(وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ

﴿٤٦﴾) . ونرى في العهد المدني في أول الأمر مثل قوله سـبحانه وتعـالى:(فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾) . كما قال الله عز وجـل(قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾)

اعتراف المستشرقين بتسامح المسلمين :

الحقيقة التاريخية هي أن أهل الذمة تمتعوا بالحرية الدينيـة تمامًـا، فضلاً عن حسن المعاملة، فقد كان التسامح هو شعار الإسلام، ولم يكن الفتح العربي حربًا صليبية مثل الحروب الصليبية التي شهدتها بلاد الشام وبعض بلدان الشرق العربي ويدلل (توماس أرنولد) [١٦٧] على تسامح المسلمين برسالة لأحد رجال الكنيسة، وهو البطريق النسطورى (يشوع ياف الثالث) كان قد بعث بها إلى رئيس أساقفة الفرس، وقد تضمنت هذه الرسالة الدليل القاطع على طابع الهدوء والمسالمة التي اتبعها العرب في نشر الإسلام، فقد احترم المسلمون عقائد أهل الذمة وعاداتهم وعرفهم مقابل جزية زهيدة تقل عما كانوا يدفعونه إلى ساداتهم السابقين من الفرس والروم من الضرائب[١٦٨] ولم يطبق العرب على أهل الذمة ما كانوا يوقعونه على المسلمين من عقوبات لشرب الخمر [١٦٩] .

---

١٦٧ الدعوة إلى الإسلام ص ٧٥

١٦٨ لوبون : حضارة العرب ص ١٦٩ .

١٦٩ ديمومبين: النظم الإسلامية ص ١٦٦

obeikan.com

اعترف معظم المفكرين المسيحيين بأن العرب المسلمين عاملوا دائمًا غير المسلمين معاملة تنطوي على التسامح، وقد عاش المسلمون والذميون جنبًا إلى جنب في مجتمع واحد تربطه صلات المودة والمحبة والتعاون ومن هؤلاء المفكرين(جولد تسيهر) الذي قال: أن ما يشاهد اليوم من تسامح الحكومات الإسلامية يرجع إلى ما كان في النصف الأول من القرن السابع الميلادي من مبادئ الحرية الدينية، التي منحت لأهل الكتاب في مباشرة أعمالهم الدينية. وروح التسامح في الإسلام قديما، هي تلك الروح التي اعترف بها المسيحيون المعاصرون أيضا، كان لها أصلها في القرآن : (لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ).

أشاد معظم المستشرقين بحسن معاملة المسلمين لأهل الذمة، فيقول (أرنولد) [١٧٠] أن المسلمين لم يألوا جهدًا في معاملة رعاياهم من المسيحيين كما أكد (باروتولد) [١٧١] أن النصارى كانوا أحسن حالاً تحت حكم المسلمين، اذ أن المسلمين- كما يذكر جولد تسيهر- اتبعوا في معاملاتهم المدنية والاقتصادية لأهل الذمة مبدأ الرعاية والتساهل. ويذكر (شد) أن العرب عاملوا النصارى واليهود معاملة تمتاز بالتسامح. ويمتدح (جوزى) [١٧٢] بني أمية لأنهم ساووا بين طبقات الفرس وعاملوا أهل الذمة معاملة حسنة.

لم يكن النظام المالي الذي عومل به أهل الذمة في العصر العربي الإسلامي قاسيًا أو ظالمًا فذكر(فون كريمر) [١٧٣] أنه لم يلحظ في نظام

---

[١٧٠] الحضارة الإسلامية ص ١٩-٢٠ .

[١٧١] من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام ص ٤٥ .

[١٧٢] الحضارة الإسلامية ص ٨٢ .

[١٧٣] السيادة العربية ص ٢٠ .

الضرائب شيئًا مجمعًا، و يرى (فان فلوتن) [١٧٤] أن الضرائب ليست فادحة بالنسبة لما كانت تقوم به الحكومة العربية من بناء الطرق وحفـر التـرع وتوطيد الأمن وما إلى ذلك من ضروب الإصلاح، والحقيقة أن الجزية لـم تكن عقابًا لأهل الذمة، فهي نظير إعفائهم مـن الجنديـة ومقابـل حمايـة المسلمين لهم، وقد فرض الإسلام على المسلم الزكاة حتـى يتكافـأ الـذمي والمسلم في الواجبات، وكان نظام الجزية عادلاً ــ كان حسب مقدرة الفـرد المالية، ففرق بين الغنى والفقير ومتوسط الحال، كما أعفي النساء والصبيان وذوى العاهات والرهبان، وكان لأهل الذمة نصيب من العطاء.

قال (جان مليا) : الإسلام دين سماوي، وهو دين حـب وعاطفـة وشرف، وأكثر الأديان تساهلاً. وتحدث الكاتب الإنجليزي(برنادشـو) عـن الإسلام فقال:أن أوروبا الآن ابتدأت تحس بحكمة محمد، وبدأت تعشق دينه، كما أنها ستبرئ العقيدة الإسلامية مما اتهمت به من الأراجيف رجال أوروبا في العصور الوسطى وسيكون دين محمد هو النظام الذي يؤسس عليه دعائم السلام والسعادة، ويستند على فلسفته في حل المعضلات والمـشكلات، وأن كثيرين من الأوربيين الآخرين يقدسون تعاليم الإسلام، ولـذلك يمكننـي أن أؤكد نبوءتي فأقول أن بوادر العصر الإسلامي الأوروبى قريبة لا محالة .

وخلاصة القول: نادى الإسلام بالحرية والإخاء والمساواة، ورسـم وسائل تحقيقها، وأقام موازين الحق والعدل والإنصاف ودعا إلى التعـاون على البر والخير والإصلاح، كل ذلك في ظل المحبة والوئام والسلام العام.

* * * * * * *

[١٧٤] السيادة العربية ص ٢٠.